www.j4know.com

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة المعارف

Bibliotheca Alexandrina Library (LGOAS)

حقوق الطبع محفوظة للملتزم

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

سنة ١٣٢٧ هـ — ١٩٠٩ م

www.j4know.com

www.j4know.com

www.j4know.com

الى اخي وعزيزي محمد افندي حسين هيكل

من اخيكم المخلص

نعمان حسين

www.j4know.com

روح الاجتماع

www.j4know.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه (روح الاجتماع) ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالأجازة

طُلب منى ان أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقا صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ما

احمد فتحى زغلول

القاهرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٩

www.j4know.com

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفبل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس
فى المدرسة الفرنساوية

علامة مودة

جوستاف لوبون

www.j4know.com

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى افراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من اؤلئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الامم الاّ ان هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الازمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حلّ فى ايامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لاربابه بالطبيعة واصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

www.j4know.com

وانى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى انى أريد ان اتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو (جوبليه دالفيالا) فى كتاب نشرناه حديثاً انى كثيراً ما خالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من ارباب المذاهب العصرية لانى لست تابعاً لواحد منها وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى اننى استخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادئ بدء انها نتائجه اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عند

www.j4know.com

الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء فليس فى يدنا ان نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً الاّ ان ذلك لا يكون تابعاً لارادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من اسوأ المؤثرات فى الامم مهما دلّ النظر على حسنها لانها لا تكون مفيدة الاّ اذا كان فى الامكان تغيير روح الامة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم انه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الأحوال فيها لأنه ان

www.j4know.com

صح نظراً ان لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق ان قيمتها عملا نسبية دائماً

لذلك ينبغي عند البحث في حال من أحوال الاجتماع ان ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلي للباحث ان تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملي وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة الآ يسيراً انظر الى مكعب او دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لكنها قد تحضر امام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً او مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية اكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية لانها هي التي تتراءى امامنا وهي التي يمكن للرسم أو لآلة التصوير ان تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصوري حقيقي اكثر من الحقيقي في بعض الاحوال لان تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء او نقلها بآلة التصوير من دون

www.j4know.com

ان يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في أذهانهم على ان معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعني العلماء لا يفيد الاَّ فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الاحوال الاجتماعية ان لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الاولى هي التي لها شيء من الاهمية في تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضي الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقي بادئ بدء

وهناك أسباب اخرى تدعو الى هذا الحذر منها ان الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث ان يحيط بها كلها وأن يتعرف مالها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر ان الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو في الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتي من الاعمال بما يدل على انحطاط

www.j4know.com

مداركها انحطاطاً كلياً غير ان لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً او طبيعة او يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور) وعلى كل حال لا يسعنا ان ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً مايظهر انفى باطن الامم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لاتجد شيئاً اكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشئ الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لاشك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من ان الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها ولكن لا ينبغى أن ننسى ان ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الأفكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور يعملها وقد يكون هذا هو السر فى قوتها على انا نشاهد فى الطبيعة ان الذوات الخاضعة

www.j4know.com

لمجرد الالهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك ان العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والأول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

www.j4know.com

تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى ـ فان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم ـ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات ـ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية ـ كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة ـ النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات ـ فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم ـ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها ـ فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية ـ أهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسى

—

يخال الناظر فى احوال هذا الكون ان الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كاغارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين ان وراء

www.j4know.com

اسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الكلى فى افكار تلك الأمم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى افكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى ان اشد اخلاق الأمم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها

واحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام احوال جديدة ونشوء افكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت

www.j4know.com

الافكار التى ستحل محلها في دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر ان نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما اننا لا نعرف حتى الآن على أى الافكار الاساسية والمبادئ الاولية يقوم بناء الامم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة انه سيكون امام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لانها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد ان حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهى القوة التى يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى ان معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التى لا يهددها طارئ بل هى تعظم وتنمو وعليه فالدور الذى نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة

www.j4know.com

التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب ـ أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خطتهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الامم راجعاً الى ماتحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه أصحاب مشورة الامراء

فجلوس طبقات الامم على عرش السياسة أعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هـذا التطور لان هذا الحق بقى ضعيف الاثر زمناً طويلا وكان فى مبـدإ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانيـاً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر

www.j4know.com

بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع امامها السلطات واحدة بعد الأخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية ـ تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت

www.j4know.com

بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التي نراها اليوم في دور التكون من السلطان العظيم على الافكار ما للمذاهب التي رسخت أصولها في الاعتقادات أعني سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى في الامم وهم الذين يمثلون اكثر من غيرهم افكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبني على التأمل الصحيح وحب النبات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذي اخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الادبي وتأثيرها الروحي بعد ان بالغوا في احتقارها وغالوا في اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم في طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحي والتنزيل وفات اولئك المتدينين من جديد ان الوقت قد

www.j4know.com

فات — واذا صح ان الفيض الالهى اخـذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهيـة جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافكار التى انتشرت فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تنمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة او على الاقل بيان النسب التى تربط الامور بعضها ببعض مما تقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة ابداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا واصم لا يصل اليـه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم ان يحملوا انفسهم على الاتفاق معه اذ لا شئ يقدر ان يعيد لنا تلك الاوهام التى فرّت امام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الامم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لا رجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول

www.j4know.com

فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز ان تولى الجماعات قياد الامم يكون خاتمة ادوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس فى اودية الفوضى التى يخال انه لا بدَّ لكل امة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن اين السبيل الى منع ما هو كائن

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الامم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة اما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكنا لم نر حتى الآن للجماعات اثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لان المدنية لا تقوم الا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير اهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها ـ ومثل الجماعات فى

www.j4know.com

قوتها الهادمة مثل المكروبات التى تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادئ بدىء أن العامل فى حوادث التاريخ هو كثرة العدد

انا لنخشى ان يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذى لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كانت الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن ايدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التى كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها الاَّ يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وانما اشتغلوا بها فى الأيام الاخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة الآن هناك ايضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشئ من جهة واحدة ولا يتوصل الباحث لمعرفة ادراك الجماعات ببحثه فى الجرائم

www.j4know.com

التي قد تصدر عنها كما انه لا يتوصل الى معرفة ادراك الفرد بالبحث في عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الاديان واسسوا الدول ورسل المذاهب كلها واقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائماً من علماء النفس وهم لا يشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة في اغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هي التي مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة باحوال الجماعات النفسية في البلاد التي انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات في شعوب اخر كذلك كان شأن اكبر مستشاريه فانهم ايضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن امتهم فقد كتب له (تاليران) ان اسبانيا تلاقي جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب في ان نابليون قام في بلاد الاسبان وفي بلاد الروسيا على الاخص

www.j4know.com

بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات اصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل ان يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا اردنا ان نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على احوالها النفسية وبذلك نفقه ايضاً انه لاقدرة لها على تكوين رأى او التفكير فى شئ خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لاتقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو اراد وازع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لايختار التى هى اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل اكثرها قبولا بالفعل عند الناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك ادعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على اقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية فهى لاتضيق عليهم فيما الفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير

www.j4know.com

محمود فاذا بدلت هـذه الضريبة بضريبة الايراد او الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت اصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هـذه الضريبة اخف من تلك عشر مرات ذلك لان مبلغاً ذاقيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوما بعد يوم ووجب اداؤه دفعة واحدة وفي ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درهما الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله لـكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضي شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثـال الذى قدمناه من اسهل الامثـال ومعرفة صحته ميسورة للـكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لـكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لان التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون ابداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التى ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاماً عـدداً كبيراً من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين فى حينه ان السبب فى كون اكبر

www.j4know.com

مؤرخي الأعصر الحاضرة واعنى به المسيو (تاين) لم يفقه تماماً بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث فى روح الجماعات بل استرشد فى الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التى هى تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الاَّ شذوذاً مع ان تلك القوى هى التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة احوال الجماعات النفسية ضرورية سواء اردنا من ذلك جانبها العملى او الرغبة فى مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه اسباب الافعال التى تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن او الغراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى انه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه الاَّ بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا ان يوغل فى الموضوع اما نحن فانما نخططه على أرض لاتزال عذراء[1]

---

(١) قلت ان القليل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها اما انا فلم اخصص لهذه الجهة الا

www.j4know.com

فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التي سماها (الجماعات المجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على ان مااستخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين اهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على ان تلك القواعد تنطبق على موضوعات اخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ماشاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسماً جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) وبعث الى بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعداني على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة او قديمة وطنية او اجنبية بسيطة او مركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لايذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بيتهم ويدركها لاول وهلة سامعون ليس لهم أدنى الملم بقواعد الفن واصوله

www.j4know.com

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس ـ فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لايكفى لتكوين جماعة – فى اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم ـ فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور ـ انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية ـ انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً ـ فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن او اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم ـ سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

www.j4know.com

الجماعات بالمعنى المتعارف اللفيف من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا او اناثاً وعلى اى نحو اجتمعوا اما فى علم النفس فلها معنى أخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الاّ انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع لفيفاً مخصوصا لم اجد لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة او الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم ان مجرد اجتماع افراد كثيرين اتفاقا لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم ان اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والافكار نحو

www.j4know.com

غرض واحد وهما الصفتان الأوليان للجماعة ابان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود اشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الأمة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير لبست اعمالهم ثوب اعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لاتتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقاً وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون ان يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل

www.j4know.com

قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على انواع الجماعات ينبغي ان نأتي على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون اولا الخواص التي تصدق على جميع افراد كل فصيلة قبل ان يشرحوا الخواص التي تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة في تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقا لان نظامها يختلف اولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التي تقع على الجمعيات المذكورة غير ان هذه الصعوبة حاصلة عند البحث في نفس الفرد الواحد لان الفرد لا يحيي حياة واحدة لا تتغير الاّ في القصص والروايات وغاية ما في الأمر ان وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق في الظاهر ليس الاّ وقد بينت في غير هذا المكان ان في جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد اخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغيراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا في زمن السلم قضاة من ذوي الفضل او موثقين اولي سكينة

www.j4know.com

هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم اعوان مخلصون

ولما كان لا يتيسر لنا ان نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب ان يكون بحثنا في التي كمل نظامها فنعرف حينئذ ماقد يؤول اليه امر الجماعات لاماهي عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ ان الجماعة التي وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هي التي تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافي مجموعها من الصفات الثابته التي لعامة الشعب وهي التي تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهي التي يظهر فيها ذلك الناموس الذي سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ماتشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ماهو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

اهم ماتمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع افرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده وذلك

www.j4know.com

كيفما كان اولئك الافراد وكيفما تباينوا او اتفقوا فى احوال معيشتهم وفى اعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد او يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الاّ عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى أجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية الا ترى انك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير انه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكن يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب

www.j4know.com

على وجه ماينبغى ان لانغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الأول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان ادق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لايسعه ان يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا او الشعورية مسببة عن مجموع اسباب لاشعورى متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الاباء والجدود التى لايحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب او الامة التى نحن منها فوراء أسباب اعمالنا التى نقصدها اسباب خفية لاارادة لنا فيها ووراء هذه اسباب كثيرة اخر اشد خفاء واكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجلّ افعالنا اليومية صادر عن اسباب خفية تفوتنا معرفتها

يتشابه افراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالاخص نتيجة وراثة استثنائية واشد الناس

www.j4know.com

افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر واعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الامور التي مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب او هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة في الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هي التي لها المقام الاول في حركة الجماعات فتختفي مقدرة الافراد العقلية في روح الجماعة وتنزوي بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر في عدم قدرتها ابداً على الاتيان بأعمال تقتضي فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لا تجد فرقاً كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوي الكفاآت المختلفة وما يقرره

www.j4know.com

جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم ان يشتركوا فى هذا العمل الاّ بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطاً فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة

الأول ان الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال فى اميال مما كان يحجم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور

www.j4know.com

هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى افراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابليته التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا ان نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلّ عليها علم وظائف الاعضاء منها انه اصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه

www.j4know.com

وعادته وقد دلّ النظر الدقيق فى احوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لايلبث ان يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او باسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبي اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التميز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك ايضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعا لاقبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة اشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم

www.j4know.com

بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض اخر كما وقع احياناً من ان لفظاً سعيداً او خيالا يمثل فى الوقت المناسب امام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال

والخلاصة ان انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى اشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن اجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة اشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ماهبت

www.j4know.com

ذلك هو السر في أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من افرادها اذا عرضت عليه وحده وفي ان المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال مايرفضه كل عضو من اعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير افظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس برآة من الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس في ذواتهم وحصدوا بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل مايفترق به الفرد في الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقاً كلياً بل انه قبل ان يفقد استقلاله الذاتي تتغير افكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفاً والمتردد سريع الاعتقاد والتقي شريراً والجبان شجاعاً هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ اغسطس سنه ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً بتاً

نستنتج مما تقدم ان الجماعة دائماً دون الفرد ادراكاً ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه

www.j4know.com

او اردأ على حسب الاحوال والأمر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح ان الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح ايضاً انها شجاعة فى اوقات كثيرة اخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين او تأييد المذهب اويستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين او للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لايقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الأمم وهى هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

www.j4know.com

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات واخلاقها

—

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب — الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة — البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة — لاشىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية — تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق — طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة — علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة — بعض امثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم — فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة —

www.j4know.com

فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات امر معين — ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لاتعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة امام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتا من الاوقات لايمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من اخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها — علة ذلك وامثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله — شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

—

بعد ان اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى ان نأتى عليها بالتفصيل

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك

www.j4know.com

وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على ان ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى ثم هو لا يقنع من لا المام له بتلك الاحوال أقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى اغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأوليه انها منقادة عادة الى العمل من دون ان تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبي فى افعالها اكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطري وقد تكون الافعال التى تصدر عنها

www.j4know.com

كاملة من حيث التنفيذ الاّ ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجيه وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بان فى الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط اعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شئ من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة او قاسية عليها مسحة الاقدام او الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلاتثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت انواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائماً لزم ان تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من افظع الاعمال الى اكبرها رحمة وكرماً فما اسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما ايسر ماتكون ضحية ايضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها

www.j4know.com

تأييد كل عقيدة فى الوجود الاّ من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى ان نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ اعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه اراد لوجد مائة الف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له [١]

وعلى ذلك لايوجد من افعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل اوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بامثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله

---

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت أمرته مالم يكن فى الحسبان

www.j4know.com

خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى الامور كمنظم خفى لتعسر جداً البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الاّ انه بقدر ما تتطرف الجماعة فى ارادة الشئ تسرع بالعدول عن تلك الأرادة فانها لاقدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لاتقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالهمجى لا تطيق وجود حال بينها وما تريد والذى يساعدها على ان لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر او سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى ان يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لا يثنيه عنه شئ فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولفت فى مقصدها هى الغضب الدائم

www.j4know.com

وليلاحظ ان خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التي سنأتي عليها فالأولى هي الاساس الذي ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت في ذلك كثيراً فالفرق جليّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية سكسونية واقرب الحوادث في تاريخنا يوضح ذلك باجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نباء برقي عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثأرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان اشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ أخر بانكسار تافه لجيوشنا في (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة في الحال وفي ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية امام الخرطوم انكساراً اكبر من هذا بكثير فلم ينزعج له الرأي العام الانكليزي الا قليلا ولم تتزحزح من اجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات في كل الأمم كالنساء واشدها شبها بها الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى في وقت قصير لكنه يكون على الدوام

www.j4know.com

مماساً لصخرة زيان (١) وموقنا انه سيتدهور يوماً من الايام

٢

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات ان من اخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر معد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر او اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على مايرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل

(١) هى صخرة عالية كان يرمى بعض الجناة من حالقها

www.j4know.com

او الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتميز كان من شانها ان تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول [1]

ثم ان سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب اخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى

---

(١) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك انهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة اميال

www.j4know.com

خيال الجماعة بلا ابطاء لان الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه ادنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ماقد يتوارد علينا من الافكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة ان العقل يرشدنا الى مابين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها ان تصل الى مثل هذا التميز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش تضيفه الى اصل الحادثة فهى لاتفرق بين الشئ وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وماوقع تحت الحس اولاً

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لان امزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لان اول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل ان يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق اسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله احدهم

www.j4know.com

اولا [1] فما لبث التأثر والعدوى ان مثلاه للبقية جسما مرئياً هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى في رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من اهل العقل الراجح والذكاء الوافر لانه لاتأثير لتلك الصفة في موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتمييز ماداموا فى الجماعة ورب معترض يقول ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد ان اترك القارئ امام قضايا لادليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث انقلها بلا انتقاء من بين الوف الحوادث التى يمكن سردها

وابدأ برواية واقعة من اظهر الأدلة فى موضوعنا لانها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

www.j4know.com

صنوفاً وانواعا مابين جاهل غبي وعالم المعى رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس فى كتابه الذى الفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية)قال

كانت المدرعة (لا بيل پول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قدانفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافيـة وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشـير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جلياً زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة كل ذلك كان خيالا فقد انقذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيـه من العساكر والضباط اكداساً من الناس يموجون ويمدون ايديهم وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه اغصان اشجار مغطاة باوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحـال لاتحتمل الشك ولا الابهـام كما قررناه من قبل فهنا

www.j4know.com

جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى ان تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها مالكل الجماعات من الصفات وان كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحدمنهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمى وفى الحال تنزوى ملكة التميز وتنطفئ روح النقد فى كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك مارواه لنا موسيو (دافى) وهو احد علماء النفس المحققين وقدنشرته حديثاً مجلة (اعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار اهل النظر وفيهم عالم من اشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم اشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم اجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على

www.j4know.com

(الأردواز)وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التى وقعت امامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات فى يده اعرب لهم ان ما كان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب فى بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته فى الحركات التى قام بها بل ضعف الشهادات التى كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التى يروونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على ان الطريقه التى استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير فى افكار جماعته ماجعلها ترى مالم تكن ترى

ذلك هو تأثير المنوم فى المنوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثير جائز فى عقول سامية بعد ان أنذرت فكم يكون من السهل التأثير فى عقول الجماعة العادية

والامثلة التى من هذا القبيل لاتحصى . انا اكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين

www.j4know.com

وانتشالها من نهر (السين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيدة واتفقت اقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذي وقع هنا هو بذاته ماوقع في الامثلة التي سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك واكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وامثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند احدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشاء عدوى التأثر بذلك الخيال الأول فاذا كان اول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفي ان يكون في الجثة التي تعرض عليه علامة او أثر خاص كالذي قد يكون في الجسم الذي سبقت له معرفته ليتخيل انها هي ولولم يكن بينهما ادنى شبه حقيقي في الخلقة اذ ذاك يصير

www.j4know.com

الخيال الأول اشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الأدراك وتعطل ملكة التميز تماماً . وحينئذ لايرى الانسان الشئ الذى امامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنانفهم السر فى خطأ الامهات اللاتى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث اولادهن كما وقع فى الحادثة الأتيه وهى وان تكن قديمةالعهد لكن الجرائدذكرتها اخيراً ومنها يدرك القارئ درجةالتأثر الذى بينا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان اشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول. وحدث على اثر هذه المعرفة المتكررة امر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثانى وهى تصيح : ربى انه ولدى . فلما دخلت عليه اخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضى ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جئ بزوج اختها فما وقع نظره على الجثة الاّ وقال هذا فيلبير . كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة.

www.j4know.com

اجل كل اولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هنالك وحملته شركة النقل الى باريس (١)

والذى تجب ملاحظته هو ان هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات امام القضاء . فالواجب ان لا يلتفت الى قول الصبى بحال من الأحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو انهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا انه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والاّ لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولاّ ياز) من ان تبنى على شهادة صبى

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول انها اكثر المشاهدات خطأ وانها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا نفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا

(١) اقرأ جريدة (اكلير) — ٢٢ ابريل سنة ١٨٩٥

www.j4know.com

الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر الوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيق لهذه الحملة نظراً لتناقض اقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره اخيراً أن الرواة اخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد اهم الوقائع فى حرب (سدام) وهى التى اجمع المئات من الناس على صحتها [1]

---

(١) انى اشك كثيراً فى اننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب واظن انا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جمع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الاوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويجعل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على ان الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

www.j4know.com

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الادلة التي يمكن اقامتها لاثبات أمر من الامور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب ان تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الامر شوهد فى الزمن الواحد من الوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق اولئك الشهود عليه

تنتج من هذا انه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس واردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فان عمل أى عمل كيفما كان رديئاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ انه لاثبات للاقاصيص وان سجلت فى بطون كتب التاريخ لان خيال الجماعات لا ينفك بغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذى جاء ذكره فى الانجيل

www.j4know.com

ويهوذا آله الحب الذى ذكره القديس (تيريز) . وبدليل ان (بوذا) الذى يعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل انه لايلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فان هـذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . اناشاهدنا قصة اعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشـعراء لبقى ذكره فى اكواخهم (الفقراء) زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استلب الحكم والحرية واهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابوليون . فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان امام هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لايرون فيه الا خرافة او صورة مكبرة من صورة (هرقل) اليونانى . غير انه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى

www.j4know.com

الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون ان التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة اى سواء كانت طيبة او رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التميز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ماينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لاتعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لايقبل البحث . والرجل منفرداً

www.j4know.com

قد لا يقر على أمر او ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فانه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً

وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال مايستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى اقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام بأكرم الاعمال

www.j4know.com

والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيهـا . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما ان الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الاّ المشاعر المغـالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتـذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعـدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو ايضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها ان يفخموا فى ألقابهـم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد ان الجماعة تطلب من ابطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيق .

والـكثير ينسب هـذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير انها قواعد لاتنطق غالباً

www.j4know.com

على مايقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية . والواقع ان فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الاّ انه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى ان مديرى الملاهى انفسهم عند ما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الاّ اذا لبسوا ثوب جماعة متفرجين [١] . ولو انه أتيح لنا التوسع فى هذا البحث لبينا

---

(١) وبما تقدم ندرك السبب فى ان الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحا دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوييه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد ان رفضها مديرو الملاهى الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الكبرى . كذلك رواية لامارين دى شارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فانفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة في فرنسا واكثر من الف مرة في بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهم كيف جاز ان يصدر عنهم مثل تلك الاحكام او يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع

www.j4know.com

رجحان تأثير الاخلاق القوميـة فى هذا المقام . لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الاّ بقدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لا تحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة ابداً . فقـد سبق لى بيان ان مدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده ايضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى او تنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم

قلنا ان الجمـاعات لا تعرف من المشاعر الا ما كان متطرفاً

كبيرة من شأنها ان تبعدهم عن الوقوع فيها وقعوا فيه . هذا موضوع لا يسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بان يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرسى

www.j4know.com

بسيطاً وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتها او ترفضها كذلك فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على ان هذا هو الشأن فى المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينيـة من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت انه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت أمرتها مساوية لعـدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلف . اما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خلف يأتى به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير انهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا ايضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وافكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية

www.j4know.com

اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى اشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . واخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم ان يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيها بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم

www.j4know.com

سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تحنى الرأس امام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقه الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على الجماعات دائما هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور اعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان اشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم اشد رجال الثورة تعطرساً وتطرفا لما الجم جميع الحريات واثقل بيده التى من حديد

ومن الصعب ان نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الامم اذ لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى

www.j4know.com

الجماعات استبدال اسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الامة التي تلقتها عن الآباء والاجداد فهي ترجع اليه على الدوام . اما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هي عند أهل النشأة الاولى . يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور الا بعد ان تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

اخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح

www.j4know.com

العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا ان تقول بان الجماعات أهل للتجمل باخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان اعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن اعمالها فاذا هو انخرط فيها امن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . الا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع امثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة

www.j4know.com

الصيد عند المغرمين به فهي تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بانيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها اهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل انواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتيـة والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار او باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وامثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمـال فى باب النزاهة والاخلاص وكم من جماعة تقـدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست

www.j4know.com

هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع انه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة ايام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرزولة الأثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى احوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وارفع الفضائل ومن السذاجة ان نقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً

www.j4know.com

بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزمجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب او سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

ثبت مما تقدم ان الجماعة كما انها تميل الى الدنايا هى اهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح ان يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى او صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ماضرنا من هذا ونحن لا ينبغى لنا ان نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الاَّ النادر لأنها لو تعقلت احياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

www.j4know.com

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

—

(١) افكار الجماعات ـ الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ في اجتماع الافكار المتناقضة ـ تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها ـ اثر الافكار في الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التي تجتمع الجماعات بينها الا في الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهي تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة في الامم ـ كيف تبدو الحوادث التي لها قوة التأثير في تخيل الجماعات

www.j4know.com

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنية تقوم على افكار اساسية محدودة قلما تتجددوشرحنا كيف تمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لا تدخل عليها الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم اوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لا نعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة اخرى وانما نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الأول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد او مذهب من المذاهب والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتاً مثال ذلك

www.j4know.com

العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية اشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر. والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة اهميتها اظهر أملم العين من سير النهر نفسه

وقد اخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من اجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر افكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الاّ ان القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لا تسود ولا تتمكن الاّ اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة اقل رابطة عقلية من التشابه او التلازم فيجوز ان يحل بعضها

www.j4know.com

محل بعض كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب في قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التي اجتمعت في مدركتها فتأتي باشد الاعمال تناقضاً وتضارباً

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هي تشاهد أيضاً في الافراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحي العقل كالذين غلت ثورة الدين في رؤوسهم بل اني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيري الهندستان الذين تربوا في مدارسنا الاوروبية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع افكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه او تلك تظهر في الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض في الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيق لان الافكار الموروثة هي

www.j4know.com

التى لهـا فى الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبتـه قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها فى علم النفس كبيرة جداً فانى أحسب أنه يجب لادراكها عشر سنين يقضيها الباحث سائحاً بين الأمم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الاّ اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الاّ اذا تغيرت فى الغالب تغيراً تاما واكثر ما يشاهد ذلك فى الافكار الفلسفية او العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات . ويختلف التغيير باختلاف الجماعات اوالامم التى هى منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكارما هو راق ومنها ماهو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على ان منزلة الفكر لا اهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ

www.j4know.com

المعول عليه انما هو الاثر الذى ينتج عنه الا ترى ان الافكار الدينية فى القرون الوسطى والافكار الديمقراطيه فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الاّ أغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لاحد لاثرها فيما مضى وستكون ولاحد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لا يظهر أثره الاّ اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتى على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهم القارئ ان أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير انهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون ان ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم

www.j4know.com

بعد قليل من الايام رايتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى فى نيابها الأولى بلا تغيير لانهم خاضعون لسلطان افكار اصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات اعمالنا واقوالنا والجماعات لاتشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج اثاراً متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التى ادت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت امة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى اى حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما ان وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً

www.j4know.com

طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائما متأخرة فى افكارها عدة اجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون ان سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشئ من صحتها

٢

تعقل الجماعات

—

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير ان طبقة الأدلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الاّ من باب التشبيه

وتلك الأدلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الاّ ان رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات بعضها

www.j4know.com

من حيث المشابهة او التلازم ظاهرية لا حقيقية فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة ان الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك ان الزجاج وهو شفاف ايضاً يجب ان يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور ان اكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل او كالأجير الذى هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل ان تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين اشياء متخالفة لا رابطة بينها الاّ فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا تروو الادلة التى يقدمها اليها اولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لانها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل او هى تتعقل خطأ وانها لا تتأثر بالمعقول وكثيراً مايعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى احدثته فى سامعيها على مابها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى ان تلك الخطب انما صيغت لتؤثر فى الجموع لا ليقرأها

www.j4know.com

العلماء . فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها فاذا نجح فذلك ما أراد ولو القيت خطب فى عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكليمات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان ان عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد اى يجعلها غير قادرة على تميز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً فى امر ما . اما الافكار التى تقبلها هى فهى التى تلقى اليها لا التى يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

—

الجماعات كالذوات التي لا تتعقل في حدة التخيل وفعله

www.j4know.com

الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان او واقعة او رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات اشبه بحال المنوّم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف ان شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيق

لا تتعقل الجماعات الاّ بالتخيل ولا تتأثر الاّ به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لافعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الأشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرّت القرون وتعاقبت الدهور

www.j4know.com

ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع مابلغ لا ينسى انه في عالم الخيال وانه انما ضحك أو بكى متأثرا بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ماسمعناعن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما أرى من أكبر الادلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيق تقريباً وهي ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التميز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير في ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام

www.j4know.com

وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى اشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم آساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوماً فى أن يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انى اتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهوديا لاعدت معبد سليمان) ويظهر لى انه لم يقم منذ الأسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم مانسيه فى انتصاراته وخطبه واحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير في تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابدا بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل ان

www.j4know.com

(انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو مايتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة او سر مكنون كانتصار باهر او معجزة بالغة او جرم فظيع اوامل دونه الامل فينبغى ان ترمى الاشياء جملة على علاتها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير او مائة رزء صغير لا تؤثر اقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً او رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها اثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه ان القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى اخنت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه المقتلة لم تبد امام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثاً واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام

www.j4know.com

كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت اخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودلّ الاحصاء الرسمى على غرق ٨٥٠ مركب شراعى و٢٠٣ مركب تجارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والأرزاق مالا تقدر قيمته وما هو اكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها اعنى أنه يجب ان يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجماعات عرف كيف يقودها .

www.j4know.com

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات

الجماعات

ما هو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالوهية — ميزات الشعور الدينى — قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية — امثلة شتى — في أن آلهة العامة لم تزل — فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة — الشكل الدينى للالحاد — اهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية — فى ان الاصلاح او قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

—

بينا ان الجماعات لا تتعقل وانها تقبل الافكار او ترفضها جملة وانها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات

www.j4know.com

التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التأثير فيها تضحى نفوسها فداء للمقصد التى وجهت اليـه وكذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة متطرفة فالميل عندها لايلبث ان ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات ايام سيادة الأديان او فى أزمنة الثورات السياسية الـكبرى كالتى حصلت فى القرن الماضى رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الاعمى لأوامره واستحالة البحث فى تعاليمـه والرغبـة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بهـا ومتى تكيف الشعور بهـذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً لايرى او معبوداً من الحجر او من الشجر او بطلا من الشجعان او رأيا سياسياً فـكله شعور تدخل فيه المعجزات

www.j4know.com

وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى اسلم الانسان عقله وارادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ او ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى افكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم ان التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا او فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا اله فى نظرها . هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن للمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود

www.j4know.com

قيادة النفوس الى حتفها اكثر منه وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الاّ لانهم تمكنوا من احداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو (فوستان دى كولنج) حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية ان الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها اعجاباً دينياً قال (ولم يرو لنا التاريخ ان دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والاّ لتعذر ان نفهم كيف ان ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة) انما اطاع القوم لان الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين

www.j4know.com

مدينة هيكلا للامبراطور (اوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسس هذا الهيكل المقام الأول فى نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فان الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وما كانت البطانة هى التى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابد وهيا كل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك اوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لان العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور ابداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من

www.j4know.com

التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الايام والذين تقبلوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الاَّ وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار انه لا بد للجماعات من دين مادامت جميع المعتقدات السياسية او الالهية او الاجتماعية لا تطمئن عندها الاّ اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو أمكن ادخال عدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج دينا يتعبد به الناس. ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من امر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى (نهيلست) الذى روى لنا العلامة (رستوفيسكى) قصته قال اشرق ذات

www.j4know.com

يوم نور العقل على ذلك العدى فعمد الى صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين احد المعابد وحطمها واطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و (موليشوت) ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فمحل اعتقاده الدينى كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت ابداً

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الاّ اذا وقف على الصبغة الدينية التى ينتهى حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعيه ما ينبغى البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر فى الثورة الفرنساوية الاّ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث فى روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة فلم ير فى ابطال ذلك الزمن الكبير الاّ قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا ما نعاً يصدهم عما كانوا يشتهون

www.j4know.com

على انه لا سبيل لادراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الاّ اذا فطن الباحث انها اى الثورة أثر معتقد دينى جديد حلّ فى نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه ان يدفع الذى حلّ فى قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون ان تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو انهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر فى الوجود امثال الانقلابات التى مرّ ذكرها الاّ اذا قذفت من جوف الجماعة وليس فى استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا ان الملك هو السبب فى واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لان مثل هذه المظاهرات لا تخرج الاّ من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من

www.j4know.com

تعجيلها او تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما ان (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين احدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك

www.j4know.com

الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

—

الفصل الأوّل

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

—

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ماترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ اهمية

www.j4know.com

التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ في انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة ـ في ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ في انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ في الخطأ في تقدير تأثيرها ـ في ان تأثيرها ضعيف جداً ـ في انها آثار لا مؤثرات ـ في انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الا حسن ـ في ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ في انه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربية ـ خطاء الناس في افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم في الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ في التأثير الذى يمكن ان يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

—

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها

www.j4know.com

العوامل التى تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فاما العوامل البعيدة فهى التى تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض اعنى انها تعد التربيـة التى تنبت فيها افكار جديدة ذات قوة واثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الاّ ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

واما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل اعنى انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهى التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج او ضد حكومة تهبط الى الدرك الاسفل

تتعاقب هـذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساوية وهى اكبر مثال لتلك الحوادث

www.j4know.com

كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى اجراء اصلاحات لا تعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى اراأها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١
الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها. وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم) حتى لم يعد من المفيد أن ترجع اليه هنا اذ بيناهناك ما هو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته

www.j4know.com

ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدينته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاماً وخصصنا اربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل ان تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير والتحول. نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب اعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها

www.j4know.com

٢
التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى افكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم ان بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ ايضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لان انتشاره لم يعم بدليل ان كثيراً من اقطاب السياسة لا يزالون على افكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون انه يتيسر للأمة ان تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الاّ بنور العقل وحده وفاتهم ان الأمة جسم منظم اوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الاّ بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم ان يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

www.j4know.com

وليس هـذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليـد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى ان هم الناس منذ وجدوا ان يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا فى هدمها والحاصل انه لا مدنية الاّ بالتقاليد ثم الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة فى ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الاّ انها صعوبة كبرى فاذا تأصلت فى الأمة عادات وتمكنت منها اخـلاق عدة اجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الاّ باحـدى نتيجتين فاما ان الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضى الى التربع فى سـيادته بدون تغيـير ما . واما ان تبقى تلك الحلقات منثورة فهى الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التى يجب ان تصبو اليها الامة هى المحافظة على النظامات التى ورثتها وان تسير فى الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الاّ دولة الرومان فى الازمان الخاليـة

www.j4know.com

وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى ان افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت ان اشد الثوارت عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على اهل الكثلكة كان يظن ان السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الاحد والتردد على الكنائس يدل على ان مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لان السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس

www.j4know.com

ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطاء وقعت انا فيه ايضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفي لازالة الاوهام الدينيـة ووجه الخطأ ان فى الدين سلواناً للقسم الاكبر من المساكين ومن أجل ذلك يجب ان تترك للامة قسوسها ومعابدها وعباداتها »

هكذا اختفت التقاليـد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى لا يستهان بهـا هى التى تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين اولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم اولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣
الزمان

أهم العوامل فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك فى المسائل التى يبحث عنها علم

www.j4know.com

الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيقى الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول الا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هذا قاصر على تأثير الزمان فى اراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر اراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيء التربية التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذى يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيء

www.j4know.com

بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لاتنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا اردت ان تعرف كنهها فارجع الى ماضيها . هى بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا ان الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا وما علينا الا ان نتركه يعمل لنرى كل شئ يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض اركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونا قبل ان تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم

www.j4know.com

من اضطراب وقع فى ادوار هذا الانتقال »

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى ان النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الان ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهبا

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على ان النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لا تتغير بتغيير القوانين وان الامم لا تختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى

www.j4know.com

هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولـكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما ان كل نظام لم يستقر الاّ بعد قرون عـدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسـنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لامة فى زمان يجوز ان يكون مضراً فى امة اخرى

لهذا كان من المحقق ان الامة لا تملك كلّ الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها ان تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لـكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق الاشياء الا ترى ان اعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانـكليزية مع كونها تعيش تحت امرة حكومة ملـكية وان اكبر امة حفها الاسـتبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمهاذلك ما يعترف به للانـكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى اذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم)الامريكية

www.j4know.com

ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لا ينبغى ان ينسى الناس حتى الذين هم من اكبر اعداء الشرفاء ان انكلتره هى اول امم الارض فى الديمقراطية اعنى الامة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ افرادها من الحرية اعلى مقام » وبالجملة قائد الامم اخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق واثبتها باوضح دليل واقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة فى الامم اللاتينية ان يحفظوه على قلوبهم . بداء المؤرخ ببيان ما احدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما

www.j4know.com

التي اختتقت بين تقلصات الامم اللاتينية فى اوروبا وامريكا واوضح ان الأول لم ينله التغيير الاّ على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبداً ثم قال « القواعد التى سار عليها المائتان وخمسون برلمـاناً من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتهـا وقراراتها هى انها ما اهتمت مطلقاً بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شـاذاً لشـذوذه ولم تأت بجديد الاّ اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من اجله ولم تجدد الاّ بمقدار ماتتفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التى اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم ان نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام . فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها ام العكس أولى . لكن اذا رأينا امة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت الف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة اخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت

www.j4know.com

فيه كان لنا ان نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لا مفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وان نرثى لحال اولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى اجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها ايام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التى لا تزال حية فى بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيما اعتباريا لا طبيعياً الى اقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا امكن اليوم تحقيق ما يصبو اليه اولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل

www.j4know.com

النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — الفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى اذيال التقهقر والفوضى وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا فى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الامم انما هو اخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس انها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال ان النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات — والصحيح ان لا تأثير لها البتة لانا قد عرفنا انها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات

www.j4know.com

اوهام والفاظ وعلى الاخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر افكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الافكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من اصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة فى الزمن السابق

ولكن اراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الآخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فما اثبته الكثيرون من

www.j4know.com

كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصا (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيدعلماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم او هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد اعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالبا الى مذهبهم ممن حازوا السبق فى المدارس واشار موسيو (ادولف جيو) وهو احد اعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل اربعة الآف مجرم ثلاثة الاف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) اعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ ايضاً هو ورفقاؤه ان الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعليمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان ان التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية

www.j4know.com

ولكن من سوء الحظ ان الامم اللاتينية اسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال)و(فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لاتزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت انا ايضاً فى كتاب لى اصبح قديما ان طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى اصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

واول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لايعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لان التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين « ان

www.j4know.com

حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو او مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بان المعلم مصون عن الخطأ وذلك لاينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو ان ضرر هذه التربيـة كان قاصراً على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على اولئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسـة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيرى) وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من ان يتعلموا اشـياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها اكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسـة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون ان يهتم بقيادة نفسه ولا ان يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل

www.j4know.com

سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائما للثورة . وفى اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينيا فى قدرة الحكومة وبعد امكانها وهى مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتى تخطئ ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لايد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلايسعها ان تستصنع منهم الاالقليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هولأ احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة اى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لايجد الاّ مع المشقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة امام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختار منهم قليلا فعدد

www.j4know.com

الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من انواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لان اكتساب معارف لايجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على امته (١)

ومن الواضح ان الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما

---

(١) على ان هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم ان فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون في انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (بابوس) اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا اعداء ألداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط اخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد افضت الكلام عن ذلك فى كتاب (تمدن الهند) ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

www.j4know.com

التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما اوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

كتب احد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان باوضح برهان ان تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بافصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عد لها مما يرقى ملكات

www.j4know.com

العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هـذه التربية التى تعودناها ولو لم تخرج الا عطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولانجاح الا بها وليس شئ من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

اما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافيا اذ قال « لا تتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع او حسناً غالى الثمن او رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن او الايدى او الشم ايضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزا تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلا او آجلا

www.j4know.com

الى تركيب جديد او تبسيط مركب او طريقة اقتصاد او تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو احوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين او ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان انفعها واكبر اهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان او الثلثين انهم لا ينجحون واخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون. كلفوهم بما لا يطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد او امام لوحة ان يكونوا مدى ساعتين اشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ما علم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك او ما يقرب منه مدة ساعتين ولكنهم

www.j4know.com

لا يبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدروا ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لان معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديدا لان الملكات القت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شئ بعد ذلك. هذه هى الثمرة فى المتوسط ولاشك فى ان الوارد لا يساوى المنصرف اما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ما صرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز السكسونيين فابان ان ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة مالنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشئ نفسه فالمهندس مثلا يتكون

www.j4know.com

فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد ان يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا او رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميذ والعود اخضر فى المستشفى او المعدن او المصنع او مكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى اولا بعض دروس عامة مختصرة اوجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى اوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير فى

www.j4know.com

طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من ان ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين واحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفاءته ومادته منفذا نافعاً بل مبدئا مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو ايضاً المحرك لها

اما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة اهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة او الامتياز لا انتظاراً لشىء أخر وقد اعدوا لذلك اردأ الوسائل فاخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

www.j4know.com

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد واجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لا بد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى اضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعة أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه ان يأخذ اهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائما على قدميه. مدارسنا لا تكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب ان يقتنى . لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من ان تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى اول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية امره كلما مدّ يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زماناً طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائما . تجربة قاسية ذات خطر

www.j4know.com

تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الاسى (١)

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريبا وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف ارى اساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنا خارج فرنسا لا يدركونها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الامة ومن سوء الحظ انه لا يكاد احد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من اشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء ان يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في امريكا التى ذكرها موسيو (پول بورجيه) فى كتاب (بحر اخر) فقد لاحظ هو ايضا ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم أو فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ما جاء على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

www.j4know.com

كأني بالقراء يظنون اننا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن ما زلنا فيه لأنه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التي تتولد الآن في الجماعات ان نعرف كيف هيئت الأرض التي تنبت فيها فالتعليم الذي يعطى الأمة هو المرآة التي يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذي يبذل منه الآن لشبائنا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن او تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب ان نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا في التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد ان كانت لاهية بنفسها او لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المهوسون اهل التخيلات او المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم ان الاشتراكيين والفوضويين يربون في المدارس وان فيها تحضر اوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

www.j4know.com

الفصل الثاني

العوامل القريبة في افكار الجماعات

—

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — في ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التي تحدثها في الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقي — في ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معاني بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً في نفوس الجماعات — اختلاف معاني الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية في اوروبا وفي امريكا

(٢) — في الاوهام — في اهمية الاوهام — في ان الاوهام موجودة في أساس كل مدنية — ضرورة الاوهام في الاجتماع — في ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

www.j4know.com

(٣) — التجارب ـ يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) ـ العقل ـ عدم تأثيره فى الجماعات ـ فى انه لايمكن التأثير في الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية ـ شأن المنطق في التاريخ ـ في الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

—

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيئ نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا ان نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أى العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة

www.j4know.com

التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهـذا ينبغى الـكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان احوال الجماعات تشـبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القـدماء فاما ان تتمكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة فى كل وقت لـكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمـل ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات اشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن ان يقام منها هرم ارفع من هرم خيوبس القديم

www.j4know.com

السر فى تأثير الالفاظ للصـور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان اشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماماً مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية.وهكذا مما ابهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم ان لها سلطاناً ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة ألهية.الفاظ وجمل تثير فى النفوس صورا لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قـد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن

www.j4know.com

معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والامم وان اتحدت صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ما تكون له تلك القوة اولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير اصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذا حفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها ان يجتاز الحياة بها من دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى امر من امور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لا تتغير مع الزمان الاّ ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية او لاتينية او سنسيكريتية اوردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين او ثلاثة فذلك عبارة عن احلال

www.j4know.com

الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لامم لانسبة بين حياتها وحياتنا . نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان الفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما اثبتوا لالفاظ قديمة معانى ما كانت لها ابدا فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء السنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام ساده الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه افراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات اشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند اهل اثينا او اهل اسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية لانها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل

www.j4know.com

متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى اوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبى على ملكهم كما فعل البرنس كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون ان الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الاَّ مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فمابالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا ان معانى الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية اى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا أردنا

www.j4know.com

ان نؤثر فى الجماعات لزمنا ان نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن اجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان اخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم ان يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون ان يتعرضوا لتغيير المسميات لان هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً ان حيل اعمال القنصلية والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ اعنى الاعتياض من ألفاظ اصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن اهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لاتطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة

www.j4know.com

او على الاقل لامقبولة ولا مكروهة لان قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفي تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات باسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) ان اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس (من اقامة استبداد احق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك)

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليها ان الزمان هو أهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا اطل الكلام فيه ولكنى اشير الى ان

www.j4know.com

اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالهما الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافاً بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الاول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع تشخصه الحكومة[1] فالحكومة هى المكلفة بأدارة كل شئ وحصر كل شئ واحتكار كل شئ وصنع كل شئ وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلا استثناء من احرار الى اشتراكيين الى ملكيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما امكن فلا تكلف بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشئ حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى يدهاز مام الامر فى البلاد

www.j4know.com

ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد أخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول [١]

٢

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فاقامت لموجديها اكثر التماثيل والهيا كل والمعابد وما من مدنية ومامن حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها اريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هيا كل الكلدان ومصر واقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوروبية من الرأس

---

(١) شرحت القول باسهاب في كتابى (ناموس تطور الامم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) في كتابه (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

www.j4know.com

الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما ابرزه العقل من المستحدثات الفنية او السياسية او الاجتماعية . يهدمها الانسان احيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيف ثم هو محكوم عليه دائماً ان يقيمها من جديد فلولا هى ماخرج من بربرته الاولى ولولاها لراح مسرعا يتخبط فى اودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد مافى الفنون من رفيع وجميل ومافى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد مافى دور العاديات وما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والآثار الفخمة التى ابدعتها الفنون والاديان ما بقى فى العالم شيء مما ولدته الاحلام وما كانت الالهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لاحياة للناس بغير الامل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه اصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية

www.j4know.com

والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قروناً واجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا ايضا منابع الرجاء واغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطاً بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيء للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن ابداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حياً فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم انوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافياً يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن اصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت

www.j4know.com

امامها وكانت تنضبها اعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الامرة عليها لمن اضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وازالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى ان تكون عامة ماامكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لاتؤثر غالبا فى الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن من الازمان واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار

www.j4know.com

الفتن والقلاقل فى اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديدا بارشاد العقل وحده وقنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاماً لنثبت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الأمم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما ارادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة اجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ اقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لكى تقلع الامة كلها عن الوهم بان جيش الالمان العرمرم لم يكن الا عبارة عن حرس ملى [1] لا خوف منه كما كانوا

---

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطاء

www.j4know.com

يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاماً

ولو أردنا ان نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاماً ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم .

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان ان لا تأثير للعقل فى الجماعات ما

الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ما يأتى ضمن خطابه الذى القاه على مجلس النواب في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ و نقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما افكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الاحرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأى ذلك السياسى في ضعف مستقبل السكك الحديدية .

www.j4know.com

احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لانا قدمنا ان البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الاّ بالمشابهات الرديئة ولهذا فان الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها (١) فلأجل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف اولا على

---

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم اناساً يسوقون أحد قواد الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان ياخذ رسم احد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه ان يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله ان الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين اقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل اخذاً لا رحمة فيه فأزكوا حكومة الدفاع عن الامة (١) تم التحقيق الذى بدأتموه

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

www.j4know.com

المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص امامها صورا مؤثرة وينبغي ان يكون مقتدرا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس في كل لحظة اثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التي تلجيء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لان الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه اقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين« ان للقياس المنطقي اعني الجمع بين الشيء ونظيره

وسنزجه في السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق في داره ولوانه خاطبهم بما جال بخاطري من الادلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

www.j4know.com

فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو ان فيها قدرة على ان تمثل النظائر » وهو مسلم غير انه لا فرق بين الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا أن نذكر كم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على مابها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكرا انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث فى صحتها ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوما فى صحة اساءة الشيطان او فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى

www.j4know.com

يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا ان نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل لما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لانها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوما بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر احيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها او التى تدور بها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا ان نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الامة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر ان التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو (غاليليه) [1] يصير مدة الفى عام كأله جلت قدرته يؤسس

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

www.j4know.com

باسمه اهم اركان المدنيات فى الدنيا . وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة في التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه ان يتداخل كثيرا فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار اللذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال اقوى دعائم المدنيات كلها

www.j4know.com

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

—

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد ـ التكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

www.j4know.com

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا ان نذكر كيفية استعمال هـذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١

قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان او من بنى الانسان الاّ جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الاّ ان له بذلك شأناً كبيراً تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لان تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً . اعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الاّ ما كان منها وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) اسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها .

www.j4know.com

ليس القواد غالبا من اهل الرأى والحصافة بل هم من اهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم ان يكونوا بصراء . لان التأمل يؤدى غالبا الى الشك ثم الى السكون. وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وامسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الخطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعنادا . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب اجرا على عملهم الاّ ان يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير اقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شىء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام . غير انهم ليسوا جميعاً من اهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه .

www.j4know.com

بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جدا الاّ انه سريع الزوال . اما اصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و(لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد ان سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لا فرق بين ان يكون دينياً او سياسياً او اجتماعيا . ولا ان يكون محله عملا او انسانا او رأياً بهذا كان تأثيرهم عظيما جدا . لان الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله انه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر امثالها . والذى قام باكبر حوادث التاريخ افراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الاّ

www.j4know.com

الايمان . وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا اهل البأس على الاخص هم الذين اقاموا الاديان الكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير ان الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة اطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون ان يدرك معانيها . ولكنه يؤكد ان فى العمل بها تحقيق جميع الاماني والآمال

لا يلبث الانسان ان يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك امر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما افراد طبقة العامة فان الواحد منهم متى خرج عن حرفته او مهنته لا تجد عنده فكراً واضحا فى أمر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا ان البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

www.j4know.com

من لوازم سلطة القواد ان تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد اولئك القواد من كل شيء يستندون عليه فى سلطتهم . فهم يجددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفككاً الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

www.j4know.com

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية . وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول اصحاب حدة ونزق وشجاعة واقدام . وهم على الاخص نافعون فى تنفيذ ما دبر او كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا هذا فانه كان رجلا هجوما لاذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لايستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا نفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار

www.j4know.com

وساروا في طريق مرسوم من قبل

اما الفريق الثاني من القواد وهم ذوو الأرادة الثابتة فان تأثيرهم اعظم بكثير وان كانوا اقل ظهوراً في الشكل وهم الذين نبغ من بينهم اصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و(دولسبس). وسواء كان قوادهذا الفريق من الاذكياء او الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التي اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شيء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذي يكون من ورائها هو أنه لا شيء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتي به الادارة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذي فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك في عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قدأدركته وكل شيء ينطفيء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ماتأتي به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر

www.j4know.com

العقبات التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ ذكره فقال « كان ـ يعنى دلسبس ـ يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التى ذللها . وكيف جعل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التى صادفته . والتحزبات التى اعترضته والياس الذى كان قد استولى على قلبه والخيبة التى كان يؤوب بها وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمته . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى أنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بان الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف او الخسوف »

www.j4know.com

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ .

٢

وسائل القواد فى التأثير
التوكيد والتكرار والعدوى

—

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة . والامثولة أشد ذلك تأثيراً فى نفوسها الا انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وأن يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث افكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما

www.j4know.com

تقدم . واخص ما يستعمله القواد منها ثلاث : التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطىء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمناً طويلا

فاما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى واهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها

الآن قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن ان نابوليون هو القائل بان أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشىء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره اكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها اسباب

www.j4know.com

افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحدمنا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هوالسرفى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر. ويقرأ الف مرة ان دقيق فلان شفى اعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة ان اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف ان زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فانه لا يفل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لان للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله

www.j4know.com

الخيل كلها . وتجزع الشاة او تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى ان اختلال القوى العقلية معد . وكثير ما هم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتحد لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التى مر ذكرها . ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وما عتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا ان لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا اثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت اثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ماقلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

www.j4know.com

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدئ (المودة) تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار او الاراء أو الاديبات او اللباس لان الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرقى مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه اهل كل عصر فى كل امة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على افكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم ابناء عصر واحد . ولا يلزم ان يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل

www.j4know.com

الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها »[١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد أنه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشىء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان اشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار افكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الحمارة تتولد افكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى . وقليلا ما تولدت افكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد اصاب (رنان[٣]) اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجنر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى اواخر القرن الماضى وكان قسيسا فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

www.j4know.com

« بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة الى اخرى » وقال (فولتير) [١] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا اخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لانه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون اول ضحاياه . لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف امامها اثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من الانتشار ايضاً بين بقية طبقات الامة الى ارفعها وان كان فاسدا بعيدا عن الصواب . وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من اغرب المشاهدات الاجتماعية لان الافكار العامة لاتأتيهم دائما الا من افكار عالية تخلف عنها اثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعة بعد ان تمكن منهم ويشوهونها ثم

---

(١) اشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

www.j4know.com

يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل ان تسود الافكار التى اوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف امامها قوة اخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار او الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد

www.j4know.com

يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب او الرهبة . وربما كان الاثنان اصلا له فى احوال كثيرة . الاّ انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان اكثر من نشعر بنفوذه فيناهم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات او البدع تأثير فى النفوس وان كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

ويمكن ان يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل او عمل او فكر يستولى بها على العقول . وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما . ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور . الا انه لابد ان يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة فى العالم اذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها فى قسمين. النفوذ المكتسب

www.j4know.com

والنفوذ الشخصى . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه او ثروته او شهرته . وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصى واما النفوذ الشخصى فهو امر ذاتى قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

واكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب اوالعرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً او يملك ثروة او يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما . ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[1]

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء فى انكلتره قال « لاحظت مرارا ان اجتماع احد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلا وتمييزا يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل ان يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شىء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بتقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية

www.j4know.com

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة ارباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكي كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب اذا رأى أميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفي ان يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى اشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذى يكون للافكار او الادبيات او الفنيات وغير ذلك وهو فى غالب الاحوال ناشيء من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الاداب والفنون الا تكرار رأى سبق ولم يعارضه احد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ما قرأ فى المدرسة ووجدت بذلك اسماء واشياء لا يجرأ احد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ احد على القول به و« البارتينون » اصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض

فى دمهم كالرقص عند الاندلسى . والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى . شهوتهم فى الخيل وشكسبير اقل من شهوتهم فى الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

www.j4know.com

ولا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ ان لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائماً والافراد غالباً الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الاراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب او الخطأ بل مرجعه مالها من النفوذ

تنتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم افكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم . وأولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو اراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك

www.j4know.com

ونابليون. وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطاً لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان اولئك العظماء ذوى قوة اخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الاّ انه كان له شئ منه يوم لم يكن له شئ من السلطة ولم يكن معروفا لدى احد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لا يزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لوآآت عتاة اشداء وكانوا قد اجمعوا امرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ما عتم ان اخذ بزمامهم من اول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل باول نظرة من ذلك الذى قدر له ان يكون من العظماء . واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء (اوجيرو) وهو

www.j4know.com

جندى عظيم الجثة غليظ الطبع . مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة (باراس) ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فابطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم انشح بردائه واخبرهم بنياته وانفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما (اوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح فى اعين الجماعات مساوياً للآلهة عند المتعبدين اتفق ان القائد (فاندام) وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله « اوجيرو » قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد

www.j4know.com

(اورناتو) فقال الاول للثاني وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون « ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لترانى مع كوني لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالي في سم الخياط واحراقي بالنار» وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير في جميع من يقترب منه (١)

---

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا أوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة في هذا الموضوع . فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له « أتاب اليك رشدك ايها الابله الكبير » . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالجارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بونيو) « علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف » . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين

www.j4know.com

هذا التأثير الذى فاق حـد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف انه افتتح ثانيـة بلا امهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وامامه جيوش تلك الامة المنظمة وكان الناس يظنون انها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه ان يفعلوا فلن تـكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون وكتب القائد (ولـلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة « الب » الصغيرة التى كانت كل ما يقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملـكها الشرعى وذلك من غير ان يريق قطرة دم لواحد من اهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه اثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العمومية

درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع

www.j4know.com

فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير مات نابليون ولكن نفوذه بقي حياً بعده او صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن اولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على ان خياله لا يزال قويا فى النفوس . اسىء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك فى حل مما تصنع مادمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذاك النفوذ

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت اركان الديانات الكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ فى الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العسكرى والرهبة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن امر اصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه السلف عن

www.j4know.com

الخلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نره فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غير وجه البسيطة كما غير طرق المواصلات التجارية بين الامم يوم ان فصل بين القارتين . وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذى كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مرَّ بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحا بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت . واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت

www.j4know.com

صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان في حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذ وكيف يموت. ابلغ الرجل في المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كانها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لاعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة « نوى فراى بريسه » التمساوية بمدينة « فينا » مقالة في مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت « لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على « فرديناند دولسبس » لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من أهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق في حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لانه غير وجه الارض . واتى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق في الوجود

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

www.j4know.com

الامثلة التى قدمناها تعد اقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا

لأن الامم لا تفك تسأل عن اسم الذى اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . والبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

« الا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بانفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لا حذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما امكنه ان يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الخذل . السويس وبناما . وهنا يحق للنفس ان تغضب من اداب الفوز والانتصار فلما افلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما ادركه الفشل امام صخور (كورديليير) كان نصاباً حقيراً . ان هذه الا حرب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين الفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالى . ولقد يحار مشرعو هذى العصور امام تلك الافكار العالية التى يولدها النبغاء . والعامة فى ذلك اقل فهما وادنى ادراكا . لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

www.j4know.com

اردت ان تعرف ماهيـة النفوذ مفصلا وجب ان تضع تلك الامثلة فى اعلى السلم ثم تتدرج من منشئى الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول ان يبهر جاره بثوب جديد او وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع اركان المدنيـة من علوم وفنون واداب . وترى النفوذ اول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس يقلدون ذا النفوذ عمداً او بمحض الفطرة سواء كان انساناً او رأياً او شيئاً آخر . ويتولد فى اهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون . ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حد الـكمال والاتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام اخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل اناساً من اهل الفطرة الاولى . وهم لا يشعرون من اين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين اوجدوه لانفسهم وفاتهم انه صنع احد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا احـد

www.j4know.com

المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاماً . والواقع انهم متأثرون بفعل استاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعد غريبا . وامثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى امره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح اقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون فى المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منه جزاء ذلها امام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شديداً يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات

www.j4know.com

وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته الجماعة الى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه . لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج . وهذه الوسيلة هى اضمن الوسائل لاضاعته وما من اله او انسان دام له النفوذ زمناً طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه . انما تعجب الجماعات ممن يترفع عن مقامها

www.j4know.com

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

—

(١) فى المعتقدات الثابتة — في عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — في صعوبة ازالتها — فى ان التعصب احد فضائل الامم من بعض الوجوه — في ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) — فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه التغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى ان أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار في الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

www.j4know.com

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية اى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام . فمن الاولى ماهو ثابت اولا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان. ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غير المتأمل

وكذلك الحال فى الخواص الأدبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لا يغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وافكارها يرى دائما فى اخلاقها اصلا ثابتاً ترسب فوقه افكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الأول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية

www.j4know.com

الأمة كلها . كالاقطار التى سادت ايام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية . والافكار الديموقراطية والاجتماعية فى ايامنا والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهى مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب في اوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة (الا نشأ) [١] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية . وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدا . وقيامها وسقوطها فى كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور فى حياتها . ولاقوام للمدنية بدونها

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائما بما جرى عليه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

www.j4know.com

ومن السهل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسها كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الاّ بالثورات العنيفة بل ان الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها اثر المعتقد فى النفوس. فهى تصلح لكسح تلك البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا ان سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تجديد اليوم الذى يندك فيه احد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم ياخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لان كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير ان النظامات التى اسست على اعتقاد عام تستمر حافظة لقوتها ولا تتحلل الا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل امة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع

www.j4know.com

اركان حضارتها فهي تغير وتبدل فيها حتى تهتدي الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش في فوضى حتى تثر عليه فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة التي لا بد منها وهي التي ترسم للافكار طريقها الذي تسير فيه وهي التي توحي بالايمان وتفرض الواجبات

ادركت الامم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى ان يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم في دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو ارقى الفضائل في حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما احرق اهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد في النفوس وما مات

www.j4know.com

الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الا انهم لم ينالوا قسطاً من العذاب لاجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد ان يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الامم الاوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج [1] كاقاصيص (مولوخ) [2] هكذا بقى العالم قرونا وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بان

---

(١) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقد اوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجه وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائما ليتلقاها (م)

www.j4know.com

الهاً اذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه .ولم يجل بخاطر اعظم الرجال عقلا وادراكاً مثل (غاليله) و (نيوتن) و (لا يبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هـذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن ايضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات اصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها . هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الاَّ فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الاخذ بها . والفلاسـفة وأرباب الفنون والكتاب الا فى تمثيلها على صور شىء

وقد يتولد عن العقيدة العامة افكار وقتيـة ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقـد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها .

www.j4know.com

من هـذا يتبين ان الفضل للعقائد العلمة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وافكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهـدى الناس فى سيرهم انما هى الافـكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على اعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذ الاستبداد الحقيق هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته. فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولـكن استئثار « موسى » و « بوذا» و « عيسى » و « محمد» صلى الله عليه وسلم و« لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولـكن ماذا ينفع الـكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى اوجدتها الامم لنفسها

www.j4know.com

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي واذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سبباً في عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى ان السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق الا في الدار الباقية فلم يكن لاحد ان يتارى في تحقيقها واما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب ان تتحقق في الحياة الدنيا ومتى شرع في ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب في ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التي سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

www.j4know.com

٢

فيما للجماعات من الافكار غير الثابته

—

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والاراء التى تتجدد وتزول دائماً . فمنها ما يدوم يوماً واحداً . وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذى نشأ فيه . وقد قدمنا ان التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى اكثر مما هو حقيق فى الغالب . وانها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه . ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا ان أشد المذاهب خلافاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية او الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود اسماء هذه النظامات

www.j4know.com

وانها عنـد أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر وبأن وضع الاسماء للافـكار والباس الشئ ثوباً يريه فى صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء . كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بادبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم[1] واردیتهم واجتهدوا فى تقليدهم فى نظاماتهم واحوالهم . ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخيـة . ووظيفة الحـكيم هى استخلاص مابقى من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز فى معمعة الافـكار المتغيرة ما يرجع منهـا الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفى جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء . والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة او الدين أو الفنون أو الادب . لانا اذا نظرنا فى تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ اعنى ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التى كانت ملوكية تحولت

---

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

www.j4know.com

فصارت ثورية للغاية ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا في السياسة واما في الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهية ثم رجعت الى الكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان امسوا خداماً خاضعين لنابوليون. واصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التى طرأت على افكار الجماعات فى السبعين سنة التالية. فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون . وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين واغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

واسرع من ذلك تقلب الافكار فى الادب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة . وكنا طبيعيين وكنا صوفيين . وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى . وكان الناس

www.j4know.com

يتغنون باسم هذا الكاتب او ذاك المصور في المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

واذا دققنا البحث في هذه التقلبات التي يخال انها حقيقية متأصلة في النفس رأينا ان ما كان منها مخالفاً للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التي لا رابطة بينها هي والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير باقل تغيير في البيئة التي وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهي تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذي يتكون اكداساً على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت في أيامنا هذه افكار الجماعات التي لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة أسباب

الاول ان الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر في الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه ان يفسح المجال لتولد أفكار

www.j4know.com

خاصة لا رابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى ان قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا ان الجماعات كثيرة التقلب فى افكارها فالنتيجة انها أصبحت أكثر حرية فى اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل ان تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ما هو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فان

www.j4know.com

وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فانهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

تنتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة . وقد وصل الآن الى الجاه الاسم لعقد المحالفات كما وقع اخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد . ومن اعجب ما يشاهد الآن استسلام البابلوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث (١) ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراءهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة ليست من الامور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم اكثر من الذى قبله والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر واما الجرائد فبعد ان كانت تقود الرأى العام كالحكومات

---

(١) يشير الى ما الفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر احاديثهم فى الكتب والصحف

www.j4know.com

اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير افكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل اخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى او تقرير مذهب بل هى تسير خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السيبكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان لتلك الاراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه او نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى و نصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان اهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد

www.j4know.com

يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد او ابداء الاراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين او ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أو هم

www.j4know.com

كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكياً افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار واراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد ان الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة ان يغضب وينفر والثانى ان يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقروناً بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (أوغسطس) و (نابوليون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها [1]

---

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد التى هى عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية

www.j4know.com

ليس لفكر ولا لرأى فى هذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيرا للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئاً

على انه ينبغى ان لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق ان تأثير اهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن رأى واحد من النفوس والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث اهله ان يصيروا مستبدين استبدادا

من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من اكبر اعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ اوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبير) « ان استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار » (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

www.j4know.com

يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال ان من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال. فاذا قدر لحضارة ان تقع فى يدها اصبحت هدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فانما يكون ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

www.j4know.com

الباب الثالث

اقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الأول

اقسام الجماعات

—

اقسام الجماعات العامة — انواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر ـ اوجه اختلافها ـ تأثير الشعب — فى ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية ـ فى ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ ـ الجماعات المؤتلفة العناصر ـ انواعها ـ الاقناء والطوائف والطبقات

www.j4know.com

بعد ان بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي ان نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك

ولنبدأ بقول موجز في تقسيم الجماعات

فاولها الجمع مطلقا وادنى مراتبه ما كان مؤلفاً من افراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفي الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التي احتفتها احوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بان صارت شعباً واحداً. ولهذه الجموع في بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت في هذه المجامع بقسميها العوامل التي ذكرناها في هذا الكتاب صارت جماعات منظمة او نفسية وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية

www.j4know.com

اولا الجماعات المختلفة العناصر وفيها	(١) الجماعات التى لا اسم لها (كجماعات الطريق العام) (٢) الجماعات التى لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)
ثانياً الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها	(١) الافناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا) (٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا) (٣) الطبقات (كجموع الاواسط وجموع اهل الريف وهكذا)

واليك قولا موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الكتاب وهى

www.j4know.com

تتألف من افراد ايا كانوا و كيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم و كونوا جماعة عاملة اختلفت احوالهم النفسية الاجتماعية مع احوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما وان العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تميز الجماعات المختلفة العناصر تميزاً تاماً وهو الشعب وقد ذكرنا مراراً وقلنا انه اعظم المؤثرات التى تنبعث عنها افعال الناس ونقول ان له كذلك اثراً ظاهراً فى صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من افراد ايا كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من افراد ايا كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

اشد مظاهر الافتراق الناشىء عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع افراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لاجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نواباً عن جميع العمال فى

www.j4know.com

كل امة فأدى ذلك دائما الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد تستوى فى ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهى تميل بطبعها الى حصرا السلطة وجمعها فى يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة فى يده . واما الجماعة الانكليزية او الامريكية فانها لا تعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . اول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة . واول ما تهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روح الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى ان نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الى الهمجية . ولا يخرج الشعب من الهمجيه ويتخلص من سلطة الجماعات التى لا يحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة . وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لا اسم لها كجماعات

www.j4know.com

الشوارع ثم الجماعات التي لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً في انفعالها هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما تنتج عن اعمالها بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغي

القسم الثاني

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء اول المراتب وهي تتألف من افراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة احياناً ولا جامعة تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف ارقاها وهي تتألف من افراد متحدين في الحرفة فهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هي التي افرادها من مناشئ مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط في الامة وطبقة الزراع وهكذا

www.j4know.com

ولما كان بحثي في هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتي ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتاباً خاصاً فلا اطيل في بيان صفات هذه الاخيرة واختم الكلام على الاولى بذكر بعض انواعها مثالا للبقية

www.j4know.com

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز ان تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفيا ـ فى ان افعال الجماعة لاشعورية محضة ـ امثلة شتى ـ روح جماعة شهر ستمبر ـ افكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

بعد ان يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى اقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعد ان يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى .

www.j4know.com

ويعتقد الذين ارتكبوها من افرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك باجلى بيان

فمن امثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن احاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة اصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح احدهم ان يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة « وكان المضروب طباخا خالياً من العمل ويقرب من ان يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ماذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فالقاه واخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ واتم عمله »

www.j4know.com

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر افعال الجماعه فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها فى غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة كانت او رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى احدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا اقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر (١) وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم . وانى انقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى

---

(١) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية في باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح اصله طبيب انقلب صحافياً دمويا صرفا فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعياً ان فى ذلك فداء الوطن

www.j4know.com

استخلصها من المفكرات التى كتبت ايام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون او غيره [١] فالذى يهمنا هو انه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهى تمثل الجماعة المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الا نفر يسير والباقون من اصحاب الحوانيت والصناع فى كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذى وقع عليهم . كالطاعى الذى مرَّ ذكره . وكلهم يعتقد انه قائم بواجب وطنى . وقد قاموا بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة ابداً . بل وقر فى نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . واول ما بدأوا به ان شكلوا محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك ان المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً

(١) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

www.j4know.com

فقررت اولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . واما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم او شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع . الاّ ان الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات . ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة .

كان لاولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك ان احدهم علم ان المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى اقاموها واحدا من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقا طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور

www.j4know.com

لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون . ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء . وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من ان النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه . وان القليل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين . وأمروا هؤلاء ان لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد العذاب . وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون ان يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر فى افعالهم . من ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين

www.j4know.com

او الالف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم ان السجون الاخر تضم اناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم . فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الاخر اناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود اعداء للامة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار في باريس ولا بد ان تكون قد قالت ذلك . بل قالته . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم أنهم اذا عاشوا لا يبعد ان يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم

ولما اتم القاتلون عملهم بعد ان زاولوه مدة اسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من اجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساماً

www.j4know.com

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ امثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها ما دام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

www.j4know.com

الفصل الثالث

العدول المحلفون امام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول ـ فى ان الاحصاء يدل على انه لاتلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العدول ـ ضعف تاثير الدليل العقلى ـ طريقة الاقناع التى استعملها اشهر المحامين ـ الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها او التى يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع انواع العدول فى هذا الكتاب رأينا ان نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم احسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التى لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا

www.j4know.com

فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيرا بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد اولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين أن تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من انه لا تأثير للعقل المستنير فى رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء واهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين او البدالين فى ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول . وأقر القضاة انفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من اعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيراردى جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته « اصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب

www.j4know.com

المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذلك على حسب أميالهم السياسية واحوال الانتخابات . وصارت اغلبية العدول من تجار اقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمي بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن في وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث في الايمان . ولان الطبقة الدنيا لا تخلو من اهل المروآت »

والذي يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا غرابة في هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون في الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من اشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وما كان لغيرها ان يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة في باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو « جلاجو » فلا هي احسن مما كانت

www.j4know.com

عليه ولا هى اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال احد المحامين « لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها او امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو (جلاجو) : ويكفى ان تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحماء بمرتكبى الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وأنه ما دام القانون لا يحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها اكبر من ضررها لان فى ذلك للخداع مزدجراً (١)

---

(١) مما تجب ملاحظته ان هذا الفرق التى جاء بها العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لا تكاد تضرها لا

www.j4know.com

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمعهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

اراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هذا المقام فوصف احد محامى الانجليز وكان ذاشهرةفائقة بنجاحه امام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول مايجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور

يخلو من صواب اذ يجب ان يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقا . غير ان الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هى فكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا ان الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون جيدا ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) (وكانى بالقضاة يعتقدون انهم اذا افلتوا محكوما عليه لايكونون قدانتقموا للامة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام

www.j4know.com

العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال او اختيار السهل البسيط من الادلة العادية كما هو الشان مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول ويحين مناسبة الوقت فكان يقرأ فى وجوههم اثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغى بعد ذلك وكان يتفرس اولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه الانحراف عنه ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم . وهذا ادق مافى عمل المحامى . لان الاسباب التى تبعث الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا ام ظلما)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لاثره فى نفوس السامعين

وليس من الضرورى ان يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما

www.j4know.com

هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره « عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أواثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية »

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين او الثلاثة . باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . واول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لان الرجل فى الجماعة اذا اعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية (من المعروف عنه أنه كان فى مرافعاته امام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين او الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم اصعب مراساً من البقية وانهم اهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه اشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق

www.j4know.com

من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا « سيدى الرئيس اتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى امامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع » فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم الفطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها (١) ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكنا

---

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على اعمالها ومع ما اتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الان قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا جميع الظالمين . ولكنا اقمنا فى كل مدينة قاضيا يتصرف فى شرف اهل الوطن وحريتهم كما يشاء . قويضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفردة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة اشهر بل سنة

www.j4know.com

اقنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة . ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته الى العدول انما سبقهم به القضاة . لان المتهم لا يمثل بين يدى اولئك الا بعد اعتباره جانيا من كثير من هؤلاء . من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . الا يرى انه لو سلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار برأته . ان يخطىء العدول فقد اخطأ القضاة من قبلهم . فالوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده احد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان

بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (امر القبض) وهومساو (لخطاب السجن) الذى عرفه ابؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن ان يكونوا الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

www.j4know.com

شابة تكاد تكون من البله انهمته بأنه اسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا . ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه . وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرئ . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات احوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعرى من يكون المخطئ الحقيق حينئذ آلعدول أم القضاة . يجب ان نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن ان يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر لهم وحدهم ان يخففوا من شدة القانون . فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس اعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ . اما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص . وهم قساة

www.j4know.com

بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها . لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت اقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه . وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى . ولكنى لم اوفق الى معرفة حالة اكون متهماً فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان لى بعض الامل فى البراءة امام هؤلاء والامل ضعيف امام اولئك . حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين ابداً

www.j4know.com

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

—

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التي يجب ان تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب في ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأي الناخب ـ سلطان اللجان ـ في انها تمثل اشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت قيمته ضعيفة ـ في بيان ان النتيجة تكون هي بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ في معنى الاقتراع العام عند كل امة

—

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب اعني

www.j4know.com

المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين افراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التى تقدم بيانها . فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد. وسرعة الغضب. والتصديق. والسذاجة .ويرى فى قرارتها اثر القواد واثر العوامل التى مرّ ذكرها . اى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا انجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

اول صفة يجب ان تكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى ان الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لانه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون ان يتناظر فيه والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو انه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا

www.j4know.com

اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكى يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائماً فينزع هذا الى مخالفته متخيلا انه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

الا ان النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لان الناخب يجب ان يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغى ان يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والاماني . فان كان عاملا فكل ذم فى معلمه قليل . اما المترشح المزاحم فانه يجب ان يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لاثبات انه أخس الناس وانه مجرم أثام . ومن البديهى انه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك . فان كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل ان يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل فى النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ما ينوى من الاعمال فينبغى ان لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه

www.j4know.com

حجة عليه . لكن يجب ان يطيل في البرنامج الشفهي ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا في نفوس الناخبين وهو في حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة ان الناخب لا يبحث ابداً في هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التي كانت السبب في انتخابه

ومن هنا يتبين ان جميع عوامل الاقناع التي تقدم ذكرها هي في جماعات الانتخاب . بقي علينا ان نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحري في النفوس . الخطيب الذي يعرف كيف يتصرف بها يمكنه ان يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (اولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك اهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذي أوقد نار الثورة الدموية في اسبانيا سنة

www.j4know.com

١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهى . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذاك الحين قال « ظن المتطرفون ان الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهوريه اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لان الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لقد قامت فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة» .وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) .وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى انه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن ان النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى امريكا . واخرون يرون انه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم ان كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب

www.j4know.com

الهيئة الاجتماعية . ونادي الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم احرار لا يحكمهم غير انفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمض الاّ قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقيه والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الاّ نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

اما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الاّ الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح

www.j4know.com

سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائما للسامعين . الاّ ان هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث ان يغيب فى صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئا مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (اقام بعضهم اجتماعاً وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع الفوضويون الى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا . وخرج احد الحاضرين وعينه مورمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب . وتمت الرئاسة للوطنى فلان . واخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنىء وهكذا من النعوت . فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها ان الاشتراكيين من البله او النصابين)

وهذا مثل آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء امس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال اول شهر مايو . وتقرر ان يكون الهدوء سائداً والسكون

www.j4know.com

شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بأنهم اوغاد نصابون . وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة . فاشتركت الكراسى والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أيًا كانت حتى التى تتألف من مستنيرين . وقد بينت ان الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان . اليك مادار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما اوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون ان يقطع الكلام عليه . اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون واولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة .

www.j4know.com

والاصطخاب مقذوفاً الى المشوشين . هذا يقول اخرجوه . وذاك يصيح . الى منبر الخطابة ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما اشد قبحه وجبنه . هذا اجتماع وحشي . دنئ . رذيل . متعصب . ثم اعلن انه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء . غير ان هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد في المجامع . وان اراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع . والذي يكون الآراء ويجري الانتخاب في الحالة التي تبحث فيها هي اللجان . واللجان يقودها في الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن ما يشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من اكبر انصار الديموقراطية في الوقت الحاضر « أتعرفون ماهي لجنة الانتخاب . انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا . ان الذي يحكم فرنسا الآن هي اللجان[1] »

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادي والشركات هي

www.j4know.com

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفى بما يحتاج اليه فى مثل ذلك . فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين انفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) فى مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا اردأ

وعليه فانى لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب

اشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهى التى تمثل اعظم جمعية لا اثر للشخصية فيها . ولذلك كانت اقسى الجماعات يداً واكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون فى كل صوب آمنين . وما كان يخطر على بال اشد المستبدين عسفا ان يأمر بمثل ما امرت به اللجان الثورية التى فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) . ظل (روبسبير) قابضا على الحكم كله بيده طول الزمن الذى كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد فى الرأى وانفصل عنها ادركته الداهية . اجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان اعنى حكم القواد ولن يهتدى الانسان الى حكم اشد واقسى .

www.j4know.com

العام . ولو ان الامر بيدى لابقيته كما هو لاسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها

لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلا يمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة. وعظمة المدنية لا تتوقف طبقاً على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة الا كثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان اراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الا ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقد قوتها تماماً من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الاراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل غير ان ما كان لهذه من

www.j4know.com

القوة فى ذلك الزمان هو للاولى فى هذه الايام فهى منيعة حينئذ كما كانت افكارنا فى تلك القرون . لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة اى المطلقة السراح وجد فى القرون الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة فى القوم بعد ان يرى مالها من السيادة المطلقة . أو كان يفكر فى انكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان او ذهب الى المعبد يوم السبت . انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لا جدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام فى ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان . فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقروناً بالتجلة والاحترام مصحوباً بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية . وللزمان ان يفعل فى الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها فى الظاهر . ولقد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال « ليس لاحد فى زمن المساواة اعتقاد فى أحد . لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون

www.j4know.com

تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت . اما انا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائماً . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة احسن من رأى اربعين سقاء . ولا اظن ان رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لان الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية او الرياضيات او كونه معمارياً او طبيباً بيطرياً او طبيباً او محاميا. انظر الى علماء الاقتصاد عندنا ترهم كلهم من المستنيرين واغلبهم مدرسون او اعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة ابداً كحماية

www.j4know.com

التجارة او توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس الاصورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التى لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم افهموا علماً لا نصل الى نتيجة احسن مما لو تركناه فى يد اهل زماننا لان اولئك العلماء يعملون على الاخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئا من العقبات التى امامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاماً او محصوراً فى طبقة او طبقات . فى جمهورية او ملوكية . فى فرنسا او فى البلجيك أو اليونان او البرتقال او اسبانيا . ومتوسط المنتخبين فى كل امة يمثل روح شعبها . وهو لا يكاد يتغير من جيل الى جيل

وهنا نجد مرة اخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية لا اخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات

www.j4know.com

والحكومات فى حياة الامم . هذه الامم انما تسيّر طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة اخرى طبقاً لما ورثته عن ابائها وهو ما تمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التى يبدها زمام مآلنا

www.j4know.com

الفصل الخامس

المجالس النيابية

—

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب فى ان التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — الالفاظ والصور — فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القوادمقتنعين بما يلقون من الاراء وان يكونوا من قصار النظر — في انه يستحيل ان تقبل اراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — فى انها تتحرك احياناً بحركة نفسية — فى جلسات « المتعاهدين » — فى الاحوال التى لا يكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تأثير الاختصاصيين

www.j4know.com

فى المسائل الفنية — منافع النظام النيابى ومضاره فى كل أمة ـ فان النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً ـ خلاصة الكتاب

—

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهى تتشابه كثيراً فى صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات او تقويتها . الاّ انه لا يمنع من ظهورها البتة . وتتشابه المجالس النيابية فى البلاد المختلفة كاليونان وايتاليا والبرتقال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك امام جميع الحكومات

النظام النيابى هو اقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو ان العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية

www.j4know.com

من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير . والغلو فى المشاعر ونفوذ القواد . الاّ ان لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لاتشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

اما بساطة الافكار فمن اهم مميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصا عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادئ النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح ان المبادئ تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائما الى تقدير تلك المبادئ باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

واكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) ايام ثورتنا الكبرى . فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادئ المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من انهم عبروا

www.j4know.com

الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا انهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للامة قبل تطورها الحالى . كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق احلامهم من ابسط الوسائل . فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقا شتى

واما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الأ ان لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدودا واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة باقليمه لا يمكن زحزحته عنه . ولا تؤثر فيه حجة او دليل . فلو بعث (ديموستين) ما امكنه ان يقنع عضوا بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض اصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه اولا من الناخبين اوجد له رأياً ثابتاً وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل احد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت

www.j4know.com

من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال « سمعت مدى خمسين عاماً قضيتها فى (ويستمنستر) الا قا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيى ولكن لم يكن لواحدة منها ان تحملنى على تغيير صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة او تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الاراء وظهر نفوذ القواد . لكنه لا يساوى مالهم فى الجماعات الاعتيادية . اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر . فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون . فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصا يهدم المبدأ الذى اقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم . ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق اثرا بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجلس فى كل دور افكاراً ثابتة واخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان

www.j4know.com

التردد فى الاراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التى ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لاتمثل الاّ رأى عدد صغير من اعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه انهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل ان يتم له السلطان بشهرين

www.j4know.com

ارتقى (فيكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحاً بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله. قال لى (فولايل) عن (پايات) انه لا يحب افكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق. فليس هناك للفصاحة قيمة الاّ ما وافق منها أحوال الزمان والمكان. ولا اهتمام الاّ بالمذهب التى أديت للاحزاب لا للوطن. واذا كانت المجالس النيابية قد اكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالّة ولهذا بعد ان زال الخطر شفى الناس من واجب الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً باحوال النفس. اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما

www.j4know.com

قد يكون اداه من الخدم للوطن أو للاحزاب على حد سواء. والجماعة انما تطيع قائدها موقنة بسلطان نفوذه فيها من دون ان يقترن ذلك عندها بمنفعة او شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما اوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفى لقلب الوزارة وقد اوضح احد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة اضعاف ما تساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشقر الا قدماً متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكه كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا اضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية الا ان نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول[1] »

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه فى

www.j4know.com

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام اذ ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر ان يسبق القائد الرأى العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً . ولابد له فى قيادتهم من ان يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغى له على الأخص ان يعرف مالبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الأخاذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو اكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين)« من السهل ان تقرأ دائما

الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

www.j4know.com

مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هـذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديمقراطية المحضة. ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بالفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لاحـد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكم أتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة . واليك جملة تمثل ماتقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحـدة تقودهما الى منفاهما فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيـه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لاخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التى يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التى تقودهم اليها لانهم من حزب أولئك

www.j4know.com

السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب (المتعاهدين)اذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بمنجلة[1] الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لا يجوز فى العقل تصورها فمن ذلك ما أكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة تذكر من ان أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائماً أثر فى الجماعات . ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما انه لاحرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم ان جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة او الاشتراك مع المجرمين

سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

www.j4know.com

قدمنا وهي تشتد في ازمنة الشدة . ومن افيد المطالعات قراءة الخطب التي كان كبار الخطباء يلقونها في مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من افواههم على الظالمين . ويقسمون انهم اما ان يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون .

قد يكون القائد احياناً ذكياً متعلما ولكن ذلك يكون مضراً به في الغالب . لان الذكي يميل الى بيان مافي المسائل من اوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم . وذلك يؤدي الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان اكبر القواد في الامم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً اشدهم قصراً في العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل اعظمهم قدراً وهو (روبسبيير) ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على

www.j4know.com

كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا فى نفس خلوها اكثر من انحطاطها . نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم او الدفاع الا ماتعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله «هل من مبارز» وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة. فاذا فرغ القارىء من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف «كاميل ديمولان»

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك فى الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى اودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . واصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره اعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

www.j4know.com

واما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد ان يكون قد اعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الاّ الحجج والادلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه . وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو احد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا تفوذ له فى السطور الآتيه « اذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة اخرج من محفظته اوراقا فنشرها امامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئنا . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه . لانه وزن ادلته وحررها . واعد شيئا كثيرا من الاحصاآت والحجج . وايقن ان الحق فى جانبه . وان معارضه لا يثبت امام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الاّ السجود امام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب يا ترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على السنة اولئك الذين يتحادثون فيما بينهم وما السبب القوى الذى يحمل ذلك

www.j4know.com

على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء فى عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتز . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لايسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى . ثم يخشى أن يدعو سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بمافيه من قوة . وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون »

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف فى القسوة . اذ ذاك لايصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف اعز المنافع لدى افرادها . كان من أكبر الضحايا ان يتنازل

www.j4know.com

الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وماخشوا تقتيل بعضهم بعضاً ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لا محالة كما يسوق هواليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا قدوصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ماوصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم اليك ماقاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر « ما كنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد ولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقد متفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين « لقد اقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له اشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الاثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال

www.j4know.com

(دانتون) الى المنجلة وكان رئيسه الطبيعى وموجد الثورة وقائد زمامها ومال اليمين الى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد افظع الاوامر التى اصدرتها الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و (كوطون) و (روبسبيير) فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف اقيم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبوللر) وهو شورى لا يشك احد فى صدق افكاره الديمقراطية وصفا

www.j4know.com

دقيقاً نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارئ فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها وتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى . قال موسيو (سبوللر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التي لا نهاية لها اوردت الحزب الجمهوري حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق . لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى . ذعر وآمال لا تنتهي حالتان يستوي فيهما الريفي والطفل فسكونهما يضارع قلقهما . ووحشيتهما تماثل طاعتهما ذلك شأن المزاج الذي لم يرتب والتربية التي انعدمت . لا يندهشان لامر وكل امر يفقدهما الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة . فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل . ويجهلان العلل والمعلولات . ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى الهوس . فيهما استعداد للفزع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي ابداً . ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان . ويتشكلان بكل الصور

www.j4know.com

أى رجاء فى حكومة تؤسس فوقهما »

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التى اتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لا تظهر دائما . لان تلك المجالس لا تكون جماعات الا فى بعض الاحايين . والغالب ان كل عضو من اعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها ان تسن من القوانين الفنية ماهو حسن للغاية . نعم ان الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون اقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى احسن ما يشرع وانما يكون القانون ضارا اذا ادخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة احط درجة من عمل الفرد دائماً وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لا يهذبها الاختبار . فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم

www.j4know.com

فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى اشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لانرى لها الاّ ضررين كبيرين . الاول تبذير الاموال تبذيراً لا مناص منه. والثانى الترقى فى تحديد الحرية الشخصية

فاما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلباً لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لايسع الاعضاء الآخرين ان يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى الى تقرير ضريبة جديدة . اذن يستحيل عليهم الرفض . اما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا

www.j4know.com

تأثير لها فى أشخاصهم الاَّ قليلا بخلاف مالو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعد

وهناك سبب قوى أخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية اذ لا يجرأ عضو فى المجلس على رفض طلبها لكونها فى منفعة الناخبين مباشرة . ولأنه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه الااذا أقر مايطلبه زملاؤه لمراكزهم (١) .

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونو ميست) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً لنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتى : الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمه وهى منزوية في احد الجبال و (پوى) خمسة عشر مايوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (پراد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين

www.j4know.com

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان اقل وضوحا من الاول . وهو نتيجة القوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة افكارها ولكونها تحسب انها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العلوم ولا يخفى ان استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى اوروبا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادما عليه مثل ايتاليا. الا انه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لان الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار اربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لامها باصلاح ميزانياتها . على ان الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب اشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام . فعلينا الرضا بالعيش يوما بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس في ملكنا

www.j4know.com

والظاهر انه لا مفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع ان نظامها النيابي اكمل النظامات لان النائب الانكليزي اكبر النواب استقلالا امام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى ان الزيادة الظاهرية في الحرية الشخصية لا تلبث ان تتبع بنقص حقيقي فيها ثم عاد الى هذه النظرية في كتابه الذي سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذي أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمي الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها في كثرة اللوائح التي تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها . وتفرض عليهم اعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا اهملوها . والثاني زيادة الضرائب العامة التي يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد في المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقي في تحديد الحريات يظهر في جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهي ان احداث تلك

www.j4know.com

القوانين المقيـدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المـكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم . ومآل اولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سـادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هى التى لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من اعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام ومن المعلوم ان اشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هـذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وأن صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه ان يضيق دائرة العمل الذى لا قيد فيه لـكن الأمم قد خدعت فى خيالها فحسبت ان الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على انها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملـكة الاقدام وقتل

www.j4know.com

العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة . هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال باقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم اضاعوا ملكة ذلك كله — وتصبح الحكومة مكلفة بان تعمل كل شىء وتدير كل شى وتحمى كل شىء فتصير الهاً قادراً . الا ان التجربة دلت على ان قدرة مثل هذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر ان الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن انها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشئ من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بان عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة

www.j4know.com

قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط والظاهر انه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى نريد ان نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لاسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المحتد وتباينوا لغة ودينًا لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بارق صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شىء من ذلك . ان هم الاقوم متوحشون

ثم دار الزمان فادى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار

www.j4know.com

التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر اثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة ان تخرج من دائرة الهمجية

على انها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما او تعظيم اثينا او نصرة الله فهو يكفى لتوحيد افكار افراد الامة وهى فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام . نعم تعرض له احوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى اعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاماً مسنونا

فاذا اتم الزمان صنعه الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامى الذى

www.j4know.com

لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى وقفت اسرع اليها الانحطاط لامحالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل

علامة تلك الساعة التي لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد منه حياتها

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته . وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير ان ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية. ووراءه انطماس الاخلاق. وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون امة ـ اى وحدة وان شئت فقل كتلة ـ جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطه بينهم الاّ الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها انفسهم جدّوا فى طلب من يقودهم فى جميع

www.j4know.com

أعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شيء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطاً من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا امل . هنالك تنعدم اساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية انها باقية فى بهائها الان محياها لا يزال يضيء بما اكسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

تم

www.j4know.com

www.j4know.com

فهرست

صحيفة

. مقدمة المعرب

٢ مقدمة المؤلف

٩ تمهيد

—

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى ـ فى ان تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم ـ اعتقاد أهل هذا العصر بقوة الجماعات ـ فى ان هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية ـ كيف تسود سلطة طبقات الأمة وكيف تجرى تلك السلطة ـ النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات ـ فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم ـ فى انها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها ـ فى الجهل العام باحوال الجماعات النفسية ـ اهمية الوقوف على تلك الاحوال عند الشارع والسياسي

www.j4know.com

صحيفة

٢٣

الباب الأول

روح الجماعات

—

الفصل الاول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس ـ فى ان مجرد اجتماع عدد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة ـ في اتحاد وجهة افكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم ـ فى ان الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور ـ انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية ـ انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً ـ فى ان ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو أردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم ـ سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

—

٣٧ الفصل الثانى

مشاعر الجماعات وأخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب ـ الجماعة العوبة

www.j4know.com

فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تمحى امامها المنفعة الخاصة ـ لاشىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية ـ تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة ـ بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى ان اتفاق العدد العديد من الشهادات من اردأ الأدلة على اثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها ـ الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائما الى التطرف — فى ان مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائما

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والامرة والمحافظة على القديم — فى علة تلك الصفات — فى خنوع الجماعة أمام السلطة القوية — فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية — فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة — قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون ارقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها — علة ذلك وأمثلته — قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله — شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

www.j4know.com

صفحة

الفصل الثالث

٧٠ أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية ـ فى اجتماع الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها — اثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول — درجة تعقل الجماعة منحطة دائما — لا تشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات — شدة تخيل الجماعة ـ انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها أصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها — خلابة الاشياء وما فيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية — تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم ـ كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

www.j4know.com

صفحة

الفصل الرابع

٨٥ الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ما هو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبادة الالوهية — مميزات الشعور الدينى — قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية — أمثلة شتى — فى أن آلهة العامة لم تزل — فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة — الشكل الدينى للالحاد — أهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية — فى ان الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

www.j4know.com

صفحة
٩٤

الباب الثانى

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الاول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ في ان ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـــ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وما له من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ماترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـــ اهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية ـ فى انها تصير مضرة بعد ان كانت لازمة

www.j4know.com

في ان الجماعات اشد احتفاظاً للافكار التقليدية
(٣) الزمن وكونه يهيء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ في انه هو الذى يولد النظام من الفوضى
(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ في الخطأ في تقدير تأثيرها — في ان تأثيرها ضعيف جداً — في انها آثار لا مؤثرات — في انه لا يتيسر للامم ان تختار منها ما تظنه الاحسن — في ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها امور متخالفة بالمرة — كيف توجد النظامات — في انه لابد لبعض الامم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها
(٥) التعليم والتربية — خطاء الناس في افكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم في الجماعات — بعض ايضاحات من الاحصاآت — التربية اللاتينية تضعف الاخلاق ـ في التأثير الذى يمكن أن يكون للتعليم ـ امثلة عن امم مختلفة

—

صفحة

الفصل الثانى

١٢٦ العوامل القريبة فى أفكار الجماعات

(١) الصورة والالفاظ والجمل ـ فيها للالفاظ والجمل من القوة

www.j4know.com

السحرية — فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى — فى ان تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات ـ اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم ـ اختلاف معنى ديموقراطية فى اوروبا وفى امريكا

(٢) فى الاوهام — فى اهمية الاوهام — فى ان الاوهام موجودة فى اساس كل مدنية — ضرورة الاوهام فى الاجتماع — فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) التجارب — يجوز ان تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم اوهاما ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ما تقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) العقل — عدم تأثيره فى الجماعات — فى انه لا يمكن التأثير فى الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق فى التاريخ — فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

www.j4know.com

صفحة الفصل الثالث

١٤٧ قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

(١) قواد الجماعات — حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطبيعه — روح القواد — القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات — استبداد القواد نتيجة لازمة — أنواع القواد — شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد — التوكيد والتكرار والعدوى — تأثير كل واحد من هذه العوامل — كيف ترتقى العدوى فى الامة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا — فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ — تعريف النفوذ وانواعه — النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى — امثلة متنوعة — كيف يزول النفوذ

www.j4know.com

صفحة الفصل الرابع

١٧٩ حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة ـ فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة ـ فى ان هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية ـ فى صعوبة ازالتها ـ فى ان التعصب أحد فضائل الامم من بعض الوجوه ـ فى ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة ـ فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير ـ فى ان تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد ـ فى حدود هذا التغير الحقيقية ـ فيما يكون فيه التغير ـ فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار ـ فى ان افكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال ـ فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق ـ فى ان تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلطها تسلط القاهر المستبد

www.j4know.com

صفحة
١٩٩ الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الاول

أقسام الجماعات

اقسام الجماعات العامة -- انواعها

(١) الجماعات المختلفة العناصر ـ اوجه اختلافها ـ تأثير الشعب فى ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية ـ فى ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

(٢) — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الاقناء والطوائف والطبقات

صفحة
الفصل الثانى
٢٠٦ الجماعات الجارمة

يجوز ان تكون الجماعة جارمة شرعاً لكنها لا تعد كذلك فلسفيا — فى ان افعال الجماعة لاشعورية محضة — امثلة شتى — روح جماعة

www.j4know.com

—

صفحة الفصل الثالث

٢١٤ العدول المحلفون امام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول — فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم — كيف يتأثر العدول — ضعف تأثير الدليل العقلى — طريقة الاقناع التى استعملها اشهر المحامين — الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها او التى يقسون من اجلها — فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

صفحة الفصل الرابع

٢٢٥ جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب — طريقة اقناعها — الصفات التى يجب ان تكون للمترشح — ضرورة النفوذ — السبب فى ان العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم — سلطان الالفاظ والجمل على الناخب — صورة المناقشات الانتخابية — كيف يتكون رأى الناخب — سلطان اللجان — فى انها تمثل أشد صور الاستبداد — لجان الثورة الفرنساوية — من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما

www.j4know.com

كانت قيمته ضعيفة — فى بيان ان النتيجة تكون هى بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين — فى معنى الاقتراع العام عند كل امة

—

صفحة الفصل الخامس

٢٤٠ المجالس النيابيه

اكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية — بساطة الافكار — الانفعال وحدوده — الافكار الثابتة والافكار المتقلبة — السبب فى ان التردد هو الغالب — شأن القواد — سبب نفوذهم — هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى راى عدد محدود من الاعضاء — سلطان القواد الشامل — اركان خطابتهم — الالفاظ والصور — فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الاراء وان يكونوا من قصار النظر — فى انه يستحيل ان تقبل اراء الخطيب الذى لا نفوذ له — غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة أو رديئة — فى انها تتحرك أحياناً بحركة نفسية — فى جلسات « المتعاهدين » — فى الاحوال التى لا يكون للهيئة فيها صفة الجماعة — تاثير الاختصاصيين فى المسائل الفنية — منافع النظام النيابى ومضاره فى كل امة — فى ان النظام موافق لاحتياجات العصر ولكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً — خلاصة الكتاب

تم الكتاب

www.j4know.com

﴿ تصحيح خطأ ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٥	١٤	تقيم	تقسيم
٢٨	١٧	ولـكن	ولـكى
٣٢	١٢	قابليته	قابلية
٣٥	٨	وحصدوا	وحصد
٤٢	٨	حال	حائل
٤٣	١٦	بها	بهن
٥٦	٢	يعبده	تعبده
٦٤	١٦	اذ	اذا
٦٨	١٢	مرزولة	مرذولة
٨٦	١٣	لأوامره	لاوامرها
٨٦	١٣	تعاليمه	تعاليمها
٨٩	٢	لقسس	لقسوس
٩٦	٤	التربية	التربة
[illegible]	١	مدينته	مدنيته

www.j4know.com

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٣	١٥	التربية	التربة
١٠٧	١٥	بداء	بدأ
١١٢	١٤	بتعليمها	بتعلمها
١١٥	١٧	يختار	يختارون
١١٨	١٧	الشباب	الشاب
١٢٠	١	يقدروا	يقدرون
١٣٤	١٧	أطل	أطيل
١٤٦	١١	اللذات	الذات
١٥٢	٥	يجددون	يحددون
١٥٣	١٦	تفسهم	انفسهم
١٧٢	١٧	السلف	الخلف
١٧٣	١	الخلف	السلف
١٧٣	١	نره	نراه
١٧٤	٢	ابلغ	بلغ
٢٠٢	٧	ذكرنا	ذكرناه
٢١٠	١٥	المهتمين	المتهمين
٢١٧	١٦	التى جاء بها	الذى جاء به
٢١٩	٨	يشعرمنه الانحراف	يشعرمنه بالانحراف
٢٣٥	٧	طبقاً	طبعاً